التأسيس الفلسفيّ لأخلاق البيئة عند الفيلسوف الألماني هانس يوناس

Hans Jonas' philosophical foundation of environment ethics

أ. الحسن الياسميني

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة محمد الخامس الرباط

المغرب

lahcenyasmini@gmail.com

التأسيس الفلسفيّ لأخلاق البيئة عند الفيلسوف الألماني هانس يوناس

أ. لحسن الياسميني

الملخص:

يتمحور هذا لمقال حول الأخلاقيّات الجديدة في الفلسفة المعاصرة التي تنطلق من مبدأ المسؤوليّة عند الفيلسوف الألماني هانس يوناس (*Hans Jonas* ت 1939)، الذي يعتبر من بين روّاد الفكر الأخلاقيّ الجديد، والأخلاق البيئيّة.

قد كان لكتابه **مبدأ المسؤولية** وكذلك الأفكار التي تضمّنها تقرير "بيلمونت" الشهير الذي نشر سنة 1979، أثر كبير على تأسيس الأخلاقيّات الجديدة التي تعتبر اليوم أساس السياسات الأوروبيّة والغربيّة في مجال العلوم.

ويقدّم هذا المقال جانبا من الهواجس التي تدور حول مبدإ المسؤوليّة التي تؤطر الفعل الأخلاقيّ، وأيضا النقاش حول أسس الأخلاق بشكل عامّ والأخلاق البيئيّة بشكل خاصّ.

كلمات مفاتيح: مبدأ المسؤوليّة، الأخلاق الجديدة، الواجب، المستقبل، البيئة.

Abstract:

This article is mainly about the new contemporary philosophical ethics and essentially tackles the responsibility principle of the German philosopher Hans Jonas who is considered among the founders of contemporary ethical thinking and environmental ethics.

Hans Jonas' book "responsibility principle" along with the thoughts presented in the famous Belmont report published in1979 have had a great impact on contemporary ethics which form the foundation of European and occidental politics in sciences.

This article presents some of the issues that speaks about the responsibility framing "act" ethic, as well as the debate about ethic fundamentals in general, and environmental ethic in particular.

Key words: Responsibility principle, the new ethics, duty, environment.

1- مقدّمة:

يسعى الفيلسوف الألماني هانس يوناس (Hans Jonas_1993)[1] في كتابه الشهير **مبدأ المسؤولية** إلى تأسيس أخلاق جديدة تؤطّر الفعل الإنسانيّ تجاه الطبيعة ويعتبر أنّ العصر الحديث عرف تحوّلات عميقة في الفعل الإنسانيّ كانت هي سبب استعجال الدعوة إلى هذه الأخلاق، وتنطلق دعوته هذه من فرضية أساسيّة مفادها أنّ كلّ الأخلاق القديمة التي أسسها الإنسان، كانت موجّهَة إليه، أي من الإنسان إلى الإنسان، كيف ذلك ولماذا؟

يرى هانس يوناس Hans Jonas أنّ الفعل الإنسانيّ وعلى مدى تاريخ الإنسانيّة الطويل، كان موجّها إلى الإنسان، أمّا الطبيعة التي كان يعيش فيها، فإنّها لم تكن تتأثّر مطلقا بهذا الفعل، وظلّت مستمرّة في تفاعلها معه، والإنسان نفسه كان خاضعا لها، وظلّ جزءا منها وتحت رحمتها ب باعتبار القوّة التي كانت تمثلها، إلاّ أنّ ابتكار الإنسان للتقنية وتطويره لها جعل تدخّله في هذه الطبيعة تدخّلا قويّا وعنيفا بغية جعلها في خدمته وتحت سيطرته، بل إنّه أصبح يملك ما يكفي من الوسائل التقنية لتدميرها بشكل نهائيّ، وصار يهدّد وجودها ويهدّد بالتالي الجنس البشري نفسه. هذا الأثر الكبير لقوّة الفعل الإنسانيّ يتطلب أخلاقا جديدة تحمل في طياتها مفهوما جديدا لفكرة "المسؤولية" التي لم تعد تقتصر على الفعل الإنسانيّ تجاه الإنسان، بل تجاه الطبيعة والوجود البشريّ.

ففي إطار هذا التحوّل صار الحديث عن إنسان جديد هو الإنسان **الصانع** Homo Faberعوض الإنسان العالم أو **العارف**،Homo sapiens .

وبذلك فإنّ الأمر الأخلاقيّ الذي رسّخته الفلسفة "الكانطيّة " نسبة إلى الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (Emmanuel Kant ت 1804) لمدة قرون: «**تصرف دائما وفقا لمبدإ يمكن أن يصبح قانونا كونيا**»(Kant:45)يجب أن يتغيّر ليأخذ أبعاداً جديدة: «تصرف بشكل تكون به نتائج فعلك منسجمة مع استمرار حياة الإنسانيّة». أو إذا شئنا شرح هذا الأمر الأخلاقيّ الجديد، فإنّه يعني تصرّف بشكل لا تكون به نتائج فعلك هدامة لإمكانيّات الحياة في المستقبل.

ويطرح التأسيس لأخلاق مستقبليّة جديدة أكثر من إشكال نظرا إلى أنّه يتأسّس حاضرا من أجل المستقبل، في ظلّ شروط وإمكانيّات معرفيّة حاضرة تجهل الإمكانيّات المستقبليّة، لكنّها تتأسّس على نوع من الاعتراف والاحترام للماضي الذي يمثّل أحد مقوّمات الأخلاق التي يجب أن تحافظ على المستقبل في خضم الزخم التكنولوجيّ، وهذه الأخلاق لا يمكن أن تقوم في غياب الماضي المُؤسِّس للحاضر المُؤسِّس هو

1- هانس يوناس Hans Jonas فيلسوف ألماني ولد سنة 1903 و توفي سنة 1993 بالولايات المتحدة الأمريكية التي استقرّ بها عندما غادر ألمانيا عند صعود النازية إلى الحكم، ورغم أن يوناس كان لا يحب الظهور، إلاّ أنّه أصبح من الوجوه الفلسفيّة البارزة التي عرفها القرن العشرون، ارتبط اسمه بالأخلاقيات التي صاغها، أهمها في كتابيْه المهمّيْن "مبدأ المسؤولية" الذي صدر سنة 1979 والذي صدرت ترجمته بالفرنسية سنة 1990 تحت عنوان Le principe résponsabilitéوموضوع الكتاب، بل وحتى عنوانه قريب من كتاب "كارل أوطو" Karl Otto Apel "الأخلاق في زمن العلم" [1]الصادر عن المطبوعات الجامعية "ليل" Lille وأيضا كتيّبه الصغير من أجل أخلاق المستقبل المترجم إلى الفرنسية تحت عنوان Pour une éthique du future.

أيضا لمستقبل لم يأت بعد، ويطرح هذا التأسيس عدّة تساؤلات حول المبادئ العامّة للقانون، الذي يتأسّس على مبدأ المسؤوليّة والمطالبة والمنفعة المتبادلة، وتتلّخص هذه الأسئلة فيما يلي:

هل يمكن أن يرقى هذا المطلب الى مرتبة الحقّ؟ وأيّ حقّ يمكن أن يطالب به جيل لم يوجد بعد جيل يعيش في الحاضر؟ ألا تنبني فكرة المطالبة هذه على تبادل للمنفعة؟

إنّ الأجيال الحاليّة يمكن أن تقوم بشيء تجاه الأجيال السابقة على اعتبار أنّها مدينة لها بالوجود، لكن بم تدين الأجيال الحاضرة للأجيال اللاّحقة؟ وهل الفرد البشريّ أو الإنسانيّة جمعاء مجبرة على ضمان استمرار النوع البشري عن طريق التكاثر والتوالد؟ وما هو القانون الذي يجبر شخصا ما على الزواج وترك الخلف؟

هذه تساؤلات عميقة يطرحها التطوّر التكنولوجيّ وتطوّر الحياة الإنسانيّة و هي التي دفعته انس يوناس(Hans Jonas) للبحث عن أسس يمكن أن تقوم عليها هذه المسؤوليّة الأخلاقيّة.فقد عرفت العلوم والتقنيّات في العصر الحديث و المعاصر تطوّرات مذهلة مكّنت الإنسان من تطوير قدراته العلميّة والعمليّة للتحكّم في الطبيعة و السيطرة عليها، وأيضا استغلال ثرواتها، إلاّ أنّ هذا الاستغلال الذي جعله المجتمع الصناعيّ أهمّ أسسه و مقوّماته، أصبح استغلالا لا يكتفي بتحقيق المتطلّبات، بل أصبح وسيلة لتحقيق رغبات لانهائيّة و لا حاجة حقيقيّة للإنسان بها، الهدف منها هو تحقيق مكاسب المجتمع الصناعيّ الرأسماليّ الذي يقوم على الربح، عن طريق صنع الرغبات و تكييفها.

وكان لابدّ أن يخلف هذا الجنون في خلق هذه الرغبات وتلبيتها جنونا مماثلا واستغلالا للطبيعة بطريقة أصبحت تشكّل تهديدا أكبر للثروات الطبيعيّة وتهدّدها بالنضوب.

ولم تقف هذه التهديدات عند الثروات و المعادن التي يمكن للإنسان الاستغناء عنها بخلق بدائلها، بل طالت حتّى المكوّنات الحيوية للبيئة الضرورية لكل حياة على وجه الأرض، و على الخصوص الماء و الهواء والتربة و غيرها.

كما أنّ التقدّم العلميّ والتقنيّ الذي صار عماد تفوّق جماعات بشريّة على أخرى، دفع هذا التطوّر إلى مداه بإنتاج أسلحة لم تعد تحقّق الغلبة والتفوّق فقط، ولكنّها أصبحت تهدّد الوجود البشريّ برمّته، ذلك أنّ السلاح النوويّ على سبيل المثال الذي ابتكرته صناعة الحرب والمخزون المتوفّر منه اليوم لدى الدول التي تمتلكه، بإمكانه تدمير الكوكب الأرضي عشرات المرات.

يُضاف إلى هذه التهديدات، التي تطال البيئة والمحيط، تهديدات تمسّ الكائن الإنسانيّ بشكل مباشر، ونخصّ بالذكر منها التطوّرات التي حقّقها علم الجينات، والتي إن كانت لها نتائج إيجابيّة فيفهم الذات البشريّة و تاريخها، فإنّ التطوّرات التي عرفتها تكنولوجيا الاستنساخ و ما يقدّر الإنسان اليوم على فعله بها، صار بإمكانها طمس الهويّة الإنسانيّة إذا ما لم يضع الإنسان قواعد تحدّد هذه التطبيقات.

إنّ هذه التطوّرات العلميّة والتقنية خلقت علاقات جديدة بين الإنسان ونفسه، وأيضا بين الإنسان والطبيعة، وأصبحت الحاجة إلى ضبط هذه العلاقة و السلوك البشريّ، ضرورة ملحّة، وهذا الضبط

يقتضي أخلاقا جديدة تتميّز بروح " المسؤوليّة"، ليس مسؤوليّة المجتمعات المنفردة، و لكن مسؤوليّة أخلاقيّة كونيّة يتّفق عليها البشر جميعا، مادامت كلّ شعوب العالم باتت تمتلك التقنيات العلميّة التي تمكنها من استغلال الطبيعة بشكل لا يهدّد مجتمعا بعينه، و لكن يهدّد المجتمعات الأخرى.

إنّ انبعاث غازات المعامل الملوّثة للفضاء، وما ينتج عنه من مشاكل الاحتباس الحراري، و مشاكل الاستغلال غير العقلانيّ للموارد الطبيعيّة مثل الماء و الهواء، و التي هي بالضرورة ملك للبشريّة جمعاء، كلّ هذه المعطيات تجعل من الأخلاق الكونيّة ضرورة لا غنى عنها، و انطلاقا من هذه المخاوف و الهواجس، انبثقت عبر العالم دعوات فلسفيّة إلى تأسيس هذه الأخلاق. ومن بين هؤلاء الفيلسوف الألماني هانس يوناس(Hans Jonas) الذي اهتمّ بهذا الموضوع من خلال كتابه الشهير "مبدأ المسؤولية"(Jonas,1995)، وأيضا كتيب صغير تحت عنوان "من أجل أخلاق المستقبل(Jonas,1997)، وكذلك من خلال المحاضرات العديدة التي ألقاها حول هذا الموضوع..

و يتمحور كتاب يوناس حول فكرة كلاسيكيّة هي فكرة **"المسؤولية"** التي تشكّل نواة النزعة الإنسانيّة التقليديّة، لكنّها مع ذلك نزعة مُعَدّلة تستجيب لمتطلّبات الحداثة، هذه الحداثة التي تحمل في ذاتها بدرة أزمتها(Jonas,1997:8)

«فمنذ بداية القرن العشرين لم يكف التاريخ عن تعليمنا وتنبيهنا إلى أن مزايا الحضارة لا تلغي مساوئها، هذه الحضارة المبنية أساسا على التقدم العلمي، و هذا النظام العلمي- التقني الحديث يقوم على تصوّر خاصّ للعقل وَضَع أصوله غاليليوGaliléeوبيكونBacon ورتب مسائله ديكارت Descartesونيوتن Newton، ثم أخذ بهذا التصور خلَفُهم القريب من "الأنواريين" و"الموسوعيين" وخلَفُهم البعيد من "الوضعانيين" و "العلمويين"، فتوسّعوا في مبادئه وأحكامه وتولوا ترسيخه في النفوس، حتّى صار في الناس أنّه لا عقلانيّة إلاّ بتحصيل الوصفين التاليين: "التجريب" و"الترويض)عبد الرحمان،2013: 112).

وعلى الجملة، تتأسّس عقلانيّة النظام العلمي - التقني للعالم على تحصيل القدرات الإمكانيّة والتمكنيّة للترويض والتجريب طلبا للسيادة على الكون قد تجلّت في هذا النظام بمظاهر ثلاثة: أحدها مظهر التنبؤ الذي تُكسِبه عقلانيّة النظم ويمكّن من سلطان السطوة، والثاني مظهر التحكّم الذي تُكسبه عقلانيّة الانتظام ويُمكّن من سلطان البطش ولما كانت لعقلانيّة النظام العلمي -التقني للعالم مراتب ثلاث: النظم الذي ينبني عليه التنبؤ والتنظيم الذي ينبني عليه التحكّم والانتظام الذي ينبني عليه التصرّف، اتّخذت كل مرتبة منها طريقا خاصّا بها في الانفصال عن الأخلاق الدينيّة، و فصلت كل واحدة منها جانبها الإمكاني عن الأصل الاعتباري من هذه الأخلاق كما فصلت جانبها التمكيني عن الأصل الاشتغالي من هذه الأخلاق.

وقد جاءت أخلاق المسؤوليّة التي دعا إليها هانس يوناس(Hans Jonas)ضمن دعوة عامة لأخلاق كونيّة، وقد كانت هذه الدعوة كما تمّت الإشارة إلى ذلك كردّ فعل على التطوّرات التقنيّة والعلميّة في المجالات المختلفة وما أصبحت تشكّله من تحدّ وخطر على البيئة والإنسان، وأيضا على التبعات التي خلفتها العولمة واقتصاد السوق، ويقتضي النظرُ في مفهوم هذه الأخلاق تحليلا وتقويما لابد من التمهيد له ببيانيْن

مختصريْن: للتمييز بين مفهوم "الأخلاق العالميّة" من جهة، ومفهوم آخر يدل هو أيضا على تناول الأخلاق لأفراد الإنسانيّة جميعا، وهو: "الأخلاق الكلية" من جهة ثانية.

والمقصود ب"الأخلاق الكلية" هي الأخلاق التّي تولىّ المفكرون والفلاسفة وضع أصولها وترتيب قواعدها على أساس أنها أخلاق عقلية وموضوعية، بحيث يتعين على كل فرد إنسانيّ الأخذ بها متى أراد الاستقامة في سلوكه أو طلب السعادة في حياته؛ ولنضرب عليها مثاليْن هما: "أخلاق الواجب" التي أنشأها الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (Emmanuel kant)، و"أخلاق المنفعة" التي وضع أركانها الفيلسوف والقانوني الإنجليزي جيريمي بِنتامJeremy Bentham ، ووسعها خَلَفُه الفيلسوف الإنجليزي جون اسْتِوارت مِيل John Stuart Mill.

أما "الأخلاق العالميّة"، فليست بهذه الأوصاف قط، بل إنّها تتّصف بأضدادها، فهي أوّلا أخلاق ذات طبيعة علميّة، إذ تُستقرَأ من التجربة الأخلاقيّة الحيّة للإنسان، وثانيا أخلاق ذات مصادر متعدّدة، تشترك أطراف كثيرة في تحديد قواعدها وأحكامها، وثالثا أخلاق ذات توجه دينيّ، إذ أنها تستقي قيمها ومبادئها من الأديان المختلفة (عبد الرحمان: 112).

2- دواعي الأخلاق الجديدة:

انطلق هانس يوناس(Hans Jonas)من مقارنة أساسيّة بين محددات الأخلاق القديمة و محدّدات الأخلاق الجديدة معتبرا أنّ هذه الأخلاق الجديدة أو بالأحرى الحاجة إلى هذه الأخلاق الجديدة بدأت مع ما يمكننا أن نسميه بزوغ العالم فوق إنساني "Le monde extra humain" أي العهد الذي بزغت فيه التكنولوجيا، وأصبحت سمة من سمات النشاط الإنساني فاستعمال الإنسان للتقنية في تعامله مع أشياء العالم لم يكن بالقوّة التي أصبح عليها في العصر الجديد، فتأثير التقنية على طبيعة الأشياء لم يكن إلّا طفيفا و سطحيّا، و لم يكن مطروحا بالشكل الذي هو مطروح به اليوم، وهذا يعني أنّ الإنسان منذ دايات وجوده الأولى لجأ إلى الكثير من الوسائل التقنية للاستعانة بها على تطويع الموجودات الطبيعيّة، إلاّ أنّ استعماله لهذه التقنية كان يهدف إلى تلبية الحاجات الأساسية بينما أصبحت التقنية والتقدم اليوم هدفا رئيسيّا من أهداف الإنسانيّة، و لذلك فالأخذ بعين الاعتبار الآثار الضعيفة التي كانت تمثّلها التقنية في القديم لم تكن تستدعي التفكير في أخلاق تضبط هذا التدخّل الإنسانيّ، ولذلك أصبح التحوّل الذي أحدثته التقنية في طبيعة الفهم الإنسانيّ يقتضي بالضرورة تحوّلا في الأخلاق الإنسانيّة (Jonas,1998:21.)

فالأخلاق القديمة كانت في الماضي شيئا موجّها إلى الإنسان لضبط هذا النوع من العلاقات الإنسانيّة، وكان الإنسان **الخيّر** حسب تلك الأخلاق هو ذلك الذي يستجيب سلوكه لمعايير الفضيلة و الحكمة الإنسانية وذلك ما كانت تجسده كلّ المبادئ الأخلاقيّة المتداولة "أحب قريبك كما نفسك". "و تصرّفْ مع الآخرين كما تحب أن يتصرفوا معك"، و"اجعل المتعة العامة فوق متعتك الخاصة" ولا تعامل قريبك كوسيلة، بل عامله كغاية إنسانيّة " و ما إلى ذلك من المبادئ الأخلاقيّة التي أطّرت على مدى قرون الفعل الإنسانيّ.

لقد كانت الأخلاق القديمة مؤسّسة على علاقات الناس فيما بينهم خاصة أولئك الذين يعيشون في فترة واحدة، وأنّ هؤلاء هم المسؤولون عن تصرّفات بعضهم البعض، وأنّ الفاعل هو الآخر، ذلك الآخر الذي نقتسم معه الفعل وآثار ذلك الفعل.

وكان التصرّف الأخلاقيّ في هذه الحالة يرتبط على الأفق القريب مع أولئك الذين نعيش معهم في أفق بقائهم على مدى الحياة، أي أنّ الأخلاق تؤطر العلاقات داخل الجيل الواحد.

وهكذا فإنّ المعرفة الأخلاقيّة التي نحصل عليها إلى جانب الإرادة الأخلاقيّة، كانت تهدف إلى ضمان أخلاقيّة الفعل الذي ينسجم مع هذه الوضعية إنها معرفة متاحة لكل الناس أصحاب الإرادة الخيرة، ولعلّ هذا ما دفع فيلسوفا مثل كانط (kant) إلى القول أنّه للوصول إلى فعل أخلاقيّ، فإنّ الإنسان ليس في حاجة إلى المعرفة بل تكفيه فقط الإرادة الخيرة.

فهل يعني هذا أنّ هذا التوجّه يعتبر الأخلاق الإنسانيّة قائمة على مفهوم كليّ مشترك بين الناس، و أنّ الحاجة إلى معرفة المجال الأخلاقيّ تكون ضروريّة فقط عندما لا يكون هذا الفعل مؤسّسا على هذا المبدإ الكلي المشترك؟

تغيّر بشكل جذري و حاسم، في نظر هانس يوناس(Hans Jonas)، فقد أدخلت التقنية تغييرات كثيرة وجديدة على الفعل الإنسانيّ لم تكن معهودة من قبل، ولم تعد الأخلاق القديمة قادرة على احتوائها، وهكذا فإنّ المبادئ الأخلاقيّة القديمة القائمة على محبّة القريب و الرحمة و النزاهة، لم تعد صالحة لضبط العيش الإنسانيّ الجديد، و الفعل و نتائجه لم يعودا من نفس المستوى و نفس الحجم، وهذه الوضعية الجديدة أصبحت تفرض على الأخلاق آفاق جديدة للمسؤوليّة لم تكن معهودة ولا متصوّرة، وهذا التحوّل للفعل الإنسانيّ في الطبيعة أضعفها بفعل التطوّر التقني الذي أكسبه قدرة هائلة، فالطبيعة لم تكن هشة بالقدر الذي هي عليه اليوم، و هذه الهشاشة و الضعف ليستا نابعتين من أسباب طبيعية ذاتية، بل نابعتين من التدخل الإنسانيّ العنيف عن طريق التقنية الهائلة التي اكتسبها و التي مكنته من التفوق عليها بشكل كبير أصبح معه للفعل الإنسانيّ أبعاد و آثار مدمّرة سواء من خلال الاستغلال المفرط للثروات لإشباع رغباته الاستهلاكيّة الزائدة عن الحاجة، أو من خلال ما أنتجته حضارته التقنية من آثار سلبيّة على الطبيعة والكون. فالآثار المدمّرة لتغيير السلوك البشري تجاه الطبيعة خلقت الحاجة إلى مسؤوليّة جديدة اتّجاه الكوكب الأرضيّ برمّته. إنّ الطبيعة كموضوع جديد للمسؤوليّة فرضت بالتالي على النظريّة الأخلاقيّة موضوعا جديدا للتفكير، فقد جعلت هذه الوضعيّة الجديدة الحاجة إلى الحفاظ على الطبيعة، بعدا، وقدرا أخلاقيّا جديدا لدى الإنسان.

1-2- الدور الجديد للمعرفة الأخلاقية:

في هذه الظروف أصبحت المعرفة ضرورة ذات أولويّة، و أصبح "الواجب الأخلاقيّ" بنفس كبر حجم الفعل الإنسانيّ، ذلك أنّ الفرق الشاسع بين قوّة المعرفة التنبؤيّة prévisionel، وبين قوّة الفعل تطرح هي بذاتها مشكلا أخلاقيّا لم يكن مطروحا، وذلك لأنّ الاعتراف و **التّعرُّف** على الجهل يصبح هو بذاته الوجه الآخر

لواجب المعرفة، و هذا الاعتراف يصبح بالتالي جزءا من الأخلاق التي يجب أن تعلم أن الرقابة الذاتيّة هي ضرورة أكثر إلحاحا من سلطتها و قوّتها الزائدة، وهذه الوضعيّة تظهر أنّ الأخلاق القديمة لم يسبق لها أن وضعت في اعتبارها الشروط العامّة للحياة البشريّة و المستقبل البعيد للجنس البشري نفسه.

إنّ هذا الإطار الجديد للعلاقة بين الإنسان و الطبيعة، و الذي فرض تصوّرا جديدا للحقوق و الواجبات يجب أن يؤسّس لأخلاق جديدة لم تتمكّن الأخلاق والفلسفات القديمة من صياغة مبادئها، فبالأحرى صياغة نظرية أو مذهب مكتمل حولها،(Jonas,1998:94) و هذا ما يعني أن هانس يوناس(Hans Jonas) لا يريد فقط التأسيس لمبادئ جديدة، بل لأخلاق جديدة ضمن مذهب أو فلسفة أخلاقية جديدة.(Jonas,1998:43)

2-2- نحو قانون أخلاقي مستقلّ عن الطبيعة:

يطرح هانس يوناس(Hans Jonas)تساؤلا مهما حول ما يقتضيه الفعل الإنسانيّ الجديد، ويتساءل إن كان هذا الفعل الجديد لا يعني أنّه لا يجب الأخذ بعين الاعتبار بشكل أكبر سوى المصلحة الإنسانيّة، و أنّ مفهوم الواجب كما صوّرته الأخلاق القديمة لم يعد ذا قيمة ويتساءل أيضا عن جدوى البحث في ما إذا ما كانت حالة الطبيعة "الفوق إنسانية"extra humaine للكون أو للعالم الحيويّ لم تعد سوى **"ملكاً"** " un bien أو شيئا يملكه الإنسان، و أصبح هذا الشيء له مطلب أخلاقيّ اتجاهنا أي اتّجاه الإنسان، ليس لأجل مصلحتنا و خيرنا، و لكن لمصلحة هذا الكون وحقا من حقوقه وبعبارة أخرى هل أعطى تحول الفعل الإنسانيّ للطبيعة حقا أصبحت تطالب به الإنسان؟

إن هذا التساؤل أصبح لا يقتضي البحث عن الخير الإنساني فقط، بل يقتضي أيضا البحث عن الخير للأشياء فوق الإنسانية، أي توسيع الاعتراف بالغايات في ذاتها إلى ما بعد الإنسان، وإدخال هذا المطلب في الإطار العام للخير الإنسانيّ، فليست هناك أخلاق لحد الآن باستثناء الأخلاق الدينيّة مهيأة لهذا الدور وهذا أيضا في نظر يوناسJonas، ما لم يقم به التفكير العلميّ المسيطر على الطبيعة، و الذي يرفض كلّ حقّ نظري للتفكير في الطبيعة و اعتبارها شيئا يستحق التقدير،(Jonas,1998:34-35) ولكن هناك نداء صامت يأتينا من عالم الحياة خاصّة من الأماكن التي يطالها التهديد، فهل يجوز لنا أن لا نهتمّ به أم على العكس من ذلك يجب أن نعترف بشرعيّته التي تعترف بها طبيعة الأشياء، أم علينا أن نعتبره فقط إحساسا داخليّا من جانبنا يمكننا التخلي عنه متى شئنا و نسمح به متى شئنا؟

إن تقدير هذا التساؤل و مقتضياته النظريّة يجعلنا مطالبين بتوسيع الفكرة ونقل هذا التساؤل من المستوى الأخلاقيّ المُؤطر للفعل إلى المستوى الميتافيزيقي المُؤطر بدوره للكائن برمّته، حيث يجد كلّ فعل أخلاقي أساسه ومبدأه.

3- التطور التقني وتحول الفعل الإنساني:

يرى هانس يوناس(Hans Jonas) أنّه إذا بقينا في مستوى الاعتبارات الإنسانيّة، فإنّ هناك وجها آخر للأخلاق، على اعتبار أن التقنية كمجهود إنسانيّ أصبحت تتجاوز الغايات البرغماتيّة التي كانت تؤطّرها في الماضي فقد كانت مهمّتها تتوقف عند تلبية الحاجات الضروريّة للإنسان، أمّا اليوم فقد أصبحت التقنية أو بالأحرى تطوّرها غاية في حد ذاتها (Jonas, 1998: 31).

فالتقدّم التقني لم يتحقّق دون أن تكون له ضريبة ليس على مستوى نتائِجه التطبيقيّة فحسب، ولكن على مستوى ممارسته هو نفسه، ذلك أنّه كلّما حصل تطوّر علمي على نطاق واسع، حصل بالمقابل تشظٍ على مستوى الممارسة، لأن المشتغلين بالعلم أو الباحثين أصبح كل واحد منهم منعزلا في زاويته وفي تخصّصه الدقيق جدّا جدا عن باقي زملائه، وعن باقي العالم، أ فنتائِج أبحاثه لا يمكن تعميمها نظرا إلى تخصّصها ودقّتها، ولعلّ هذه إحدى سمات الحداثة التي تحدث عنها الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر(Martin Heidegger ت 1976) في كتابه "**الطرق الموصدة** " Chemins qui ne mènent nulle part عندما أكّد أنّ التقنية هي من بين السمات الأساسيّة للحداثة، فقد اعتبر هايدغر(Heidegger) وهو يتساءل عن ماهيّة العلم الحديث، أنّنا عندما نتحدّث اليوم عن العلم، فإنّ كلمة علم، أصبحت تعني شيئا مخالفا عن ذلك الذي كانت تعنيه "دوكترينا" في القرون الوسطى، أو ما كان يقصد بالعلم في العصر الإغريقيّ، فالعلوم الإغريقية لم تكن أبدا علوما دقيقة، ولهذا السبب فإنّه لا يمكننا أن نقول إنّ العلوم الحديثة هي أكثر دقة من العلوم القديمة(Heidegger,2006:101)، وصارت الماهيّة أو الخاصيّة الأساسيّة للعلم الحديث هي البحث(La recherche،) وهذا البحث هو مفارق تماما للمعرفة الكلاسيكيّة، بل إنّ هذه المعرفة أصبحت تتأسس بصفتها تحرّيا في مجال من المجالات المحدّدة، حتى لو كانت مجالات عامّة، مثل التاريخ والوجود، ناهيك عن المجال الأوسع ألا وهو الطبيعة (Heidegger, 2006:104).

إنّ العلم أصبح بحثا عن طريق ما صار يُسمَّى بالمشاريع التي تفرض على الباحث صرامة خاصّة في البحث، وفي بلوغ نتائج محدّدة، ولا يلتقي المشروع والبحث فيما بينهما إلاّ من خلال صرامة المنهج وخصوصيّته، فكلّ علم يحمل هذه الصفة، وقائم على بنية المشروع في مجال خاصّ أصبحت له موضوعيّة محدّدة، يمكننا أن نتحدّث عن علوم بنفس درجة تعدّد الحقول ومجالات البحث (Heidegger, 2006:109)، ومن ثم فإنّ العالم اختفى ليعوضه الباحث المندمج في مشاريع بحث خاصّة، وهذا الباحث لم يعد في حاجة إلى المكتبة المليئة بالكتب بل أصبح في حاجة إلى المختبر والى التنقل للمؤتمرات العلميّة من أجل عرض أبحاثه، وبهذا يكون العلم بصفته بحثا قد أصبح ظاهرة أساسيّة من ظواهر الحداثة(Heidegger, 2006:114)، فقد اختفى العالِم ليحل محله الباحث المنخرط في برامج بحثية، وقد لاحظ هايدغر(Heidegger)أنّ الإنسان نفسه أصبح موضوعا للعلم.

وهكذا تفوق حسب هانس يوناس(Hans Jonas) الإنسان الصانع على الإنسان العارف، و في ظلّ هذه الظروف التي أصبحت تشهد تطوّرا متناميا ومستمرّا للتقنية، وقد صارت قادرة على تجاوز ذاتها وعلى تجاوز الإنسان الذي ابتكرها، أصبح للتقنية معنى أخلاقي بحكم المكانة المركزية التي تحتلها في الحياة الذاتية

للغايات الإنسانية، حيث أن الإنسان في ظل هذه الشروط أصبح هو المنتج و الفاعل لكل ما يقوم به، بل أكثر من ذلك هو المُهيَّأ لما سيكون في المستقبل، وبهذا المعنى يكون الفعل الجماعيّ، هو الذي يلعب دور المحور الأساس في هذه العملية الحاملة للمستقبل و ليس الفعل الفردي، وهكذا يكون المستقبل غير المحدد و المجهول حاضرا هو الذي يحدد أفق المسؤولية.

وهذا يقتضي أوامر جديدة لم يسبق لها أن طرحت صارت تتخذ المسؤولية مجالا لها، وتقتضي أيضا أخلاقيات تجد نطاق تمظهرها وتنفيذها في الفعل والقرار السياسييْن، وهذا وضع جديد لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية، وهكذا فإنّ التحوّل الجوهريّ للفعل الإنسانيّ يجب أن يساهم حسب هذا الأفق في التغيير الجوهريّ للفعل السياسي باعتباره فعلا يحمل في طياته مبدأ المسؤولية.

1-3- المدينة الكونيّة وتحوّل الواجب الإنساني في العالم:

من الملاحظات الهامّة التي استنتجها هانس يوناس Hans Jonas هو أنّ الحدود بين المدينة، أو بشكل أوسع بين الحضارة الإنسانية، وبين الطبيعة قد تقلصت أو انمحت، فقد كانت المدينة في السابق بقعة وسط الطبيعة ووسط العالم غير الإنسانيّ، أمّا اليوم فإن الفروق بين المُختَرَع (le fabriqué و بين الطبيعي قد انمحت، فقد أصبحت اختراعات الإنسان هي ما يشكل العالم، وهكذا وانطلاقا من فعل الإنسان، أصبح هذا للعالم وأصبحت لحرية الإنسان معنى جديدا لم يسبق لها أن واجهته، فقد كان العالم الإنساني قبل تدخل التقنية عالما مستقلا عن الوجود الطبيعي، أمّا اليوم، فإن العالم والإنسان بهذا المعنى قد أصبحا شيئا واحدا، ولم يعد بإمكان الواحد منهما أن يوجد دون الآخر، فوجود العالم من أجل الإنسان مطلب مستقبليّ هو ما يمكن أن يؤطر أية أخلاقيّات إنسانيّة، ومن ثم، فإن مطلب أخلاق مستقبليّة أصبح ضروريّا ضرورة ملحّة لكل فعل آني و مستقبلي على السواء.

و هكذا فإن الأخلاق التي يدعو إلها هانس يوناس Hans Jonasهي إذن أخلاق كونيّة، ولكن ما طبيعة اختلافها عن الأخلاق التي دعا إلها كانط Kant، ألم تكن دعوته هو أيضا دعوة لأخلاق كونيّة، و ما الفارق بين الدعوتين؟

يرى هانس يوناس Hans Jonas أن الأخلاق الكانطيّة كانت تستمد كونيتها من كونية الفعل المؤسس لهذه الأخلاق، أو الفعل الذي يكون مرجعا لكلّ فعل أخلاقيّ بعيد عن أيّة منفعة، و بعيدا عن كلّ تجربة، أي أخلاق مؤسّسة على ميتافيزيقا منطلقة من ذلك النداء الباطنيّ الموجّه لكلّ فعل أخلاقيّ، والمنطلق هو أيضا من الإرادة الخيّرة فحسب، وهذه الأخلاق كانت تفترض وجود جماعة إنسانيّة فاعلة مكوّنة من كائنات فاعلة عاقلة، ولذلك فإنّ الفعل المطلوب يجب أن لا يكون مناقضا لأصله الكونيّ العاقل، و يستنتج هانس يوناس Hans Jonasأن هذه الاعتبارات الأساسية لهذه الأخلاق هي أنها ليست أخلاقيّة morale بل ذات أساس و بعد منطقييْن logique،لأنها تفترض العقل الكونيّ المشترك بين الناس كأساس لكل فعل، و في إطار هذه الأخلاق فإنّ إمكانيّة فناء الإنسانية وتوقفها عن الوجود لا يكون بسبب أي تناقض داخلي بنفس الدرجة التي يمكن أن تتحقق بها سعادة الأجيال الحاضرة على حساب وجود الأجيال اللاحقة، وحسب هذه الأخلاق

فإنّ التضحية بمستقبل الأجيال اللاحقة لصالح الأجيال الحاضرة لم يكن موضوع نقد، فالمبدأ الأخلاقيّ الكانطي كان يتأسس على ذلك النداء الشهير: "تصرف بشكل يكون فعلك قانونا كونيّا " وهذا النداء أو الأمر الأخلاقيّ سيجد في إطار التحول الذي يشهده الكون بفعل الإنجازات التقنية إطارا جديدا و صياغة جديدة و هي:

"تصرف بشكل تكون نتائج فعلك منسجمة مع دوام الحياة الإنسانيّة على وجه الأرض" أو إذا شئنا عكس الأمر: "تصرف بشكل لا تكون نتائج فعلك هدّامة لإمكانيّة الحياة على وجه الأرض في المستقبل"

إنّ هذا الإطار الجديد كما يلاحظ هانس يوناس (Hans Jonas) لا يتضمّن أيّ تناقص عقلانيّ، إذ يمكنني أن أحقّق الخير في الحاضر بالتضحية بالمستقبل، كما يمكن أن أرغب في فنائي الذاتيّ وفناء الإنسانيّة جمعاء، و ذلك دون أن أناقض نفسي، أما المبدأ الأخلاقيّ الجديد، فيؤكد أنه يمكن أن يكون لنا الحقّ في المخاطرة بحياتنا الخاصة، و ليس بالحياة الإنسانيّة مثل أسطورة "أشيل " الذي فضل حياة قصيرة وبطوليّة على حياة طويلة و آمنة دون بطولات مع الحرص على تأمين جيل لاحق يذكر بطولاته.

إن الأخلاق الجديدة لا تعطينا الحق في إلغاء حياة الأجيال اللاحقة بسبب حياتنا الآنية وأنه ليس لنا الحقّ بالمخاطرة بالحياة المستقبلية (Heidegger, 2006:41-42).

ويرى هانس يوناس Hans Jonas أنه يمكننا أن ننتقد مع كانط اختيارنا لمثال من أخلاق الاعتقاد، ونقرّ أن أطروحتنا ذات الطابع الآنيّ المخالفة لكل أخلاق سابقة، يمكن رفضها انطلاقا من عدة أوجه ويمكننا أن ننطلق من الأمثلة الثلاثة الآتية:

أولا إنّ سلوك الحياة على الأرض يذهب إلى حد التضحية بالسعادة الفردية في سبيل الخلاص الأبديّ للروح، وثانيا هاجس المشرع ورجل السياسة من أجل الخير العامّ للمستقبل، وثالثا أن سياسة اليوتوبيا كلها أمثلة لسلوكات وأفعال متضمّنة لاستعمال أحياء الحاضر كمجرد وسيلة لتحقيق هدف يتجاوزهم ويزيحهم باعتبارهم عائقا أمام تحقيق هذا الهدف.

و هنا و في سياق الاحتمالات الثلاثة المذكورة، فإنّ الأوّل و الثاني يتوحّدان في جعل المستقبل مكانا ممكنا لتحقق القيمة المطلقة المتعالية عن الحاضر الذي لا يكون سوى مجرد تهيء تهيُّؤ للمستقبل، إلا أن الفرق بين الأول والثاني أي بين أخلاق الاعتقاد و بين أخلاق المسؤولية، هو أنه في المستوى الأول أي في أخلاق الاعتقاد، أن الفعل في الحاضر ليس علّة ضرورية للمستقبل، ويمكنه فقط أن يهيّئ الفرد لهذا المستقبل، ذلك أن هذا التهيُّؤَ يتحدد في حياة تنال رضى الله باعتبارها هي الحياة الأجدر، إلا أن الإنسان ليس حرّا في اختيارها، أو بالأحرى أنه ليس مؤهّلا لضمان تحقّقها، حيث أنها ليست مرتبطة بالقصدية الفردية أو الجماعية.

ويتساءل هانس يوناس Hans Jonas هنا عن مصير الأخلاق العقلانيّة، كما يتساءل عمّا يمكن أن يتحمله أو يتقلده المشرع أو رجل الدولة حول مستقبل الحياة المدنيّة، و يرى أنه بخصوص الطابع الزمني الذي يهمنا، فإن الأخلاق القديمة لا تقول شيئا، إلا أنّ الجواب قد نجده خارج الفلسفة عند المشرّعين، فهم لا

يهتمون بالمستقبل بل يشرّعون للحاضر في ديمومته، دون أن يكون هناك تخطيط مسبق للمستقبل، و هذا التشريع الذي ينبني على معايير جيّدة في الحاضر يشكل ضمانة للمستقبل (Heidegger, 2006:46)،فنبوءة رجل السياسة حسب هانس يوناسHans Jonas تتحدّد في حكمته بحسب ما يخصّصه للحاضر، وهذا الحاضر لا يضع في الحسبان مستقبلا مختلفا، بل مستقبلا مشابها لهذا الحاضر.

2-3- انبثاق أخلاق البيئة:

ساهمت الأخلاق التي دعا إليها هانس يوناس Hans Jonas في التأسيس لما يسمى بالأخلاق البيئية وترسيخ الاهتمام بها، ويمكن الإشارة إلى أن ما يُسمىَ بأخلاق البيئة هذه عرف ظهورا قويا خلال سنوات السبعينيات عندما بدأ الفلاسفة بالاهتمام بالآثار السلبية للفعل الإنساني على البيئة، وكذلك الاهتمام بالتطور التكنولوجي.

ورغم الانبثاق الذي شهده الاهتمام بالبيئة وبأخلاقها، إلّا أنّ هذه المواضيع ليست جديدة على مجال الأخلاق، وفي قلب هذه الاهتمامات يوجد الإنسان ومكانته في العالم، وكذلك علاقته بالطبيعة وبتنوعها، فماذا يقصد إذن بالطبيعة، وهل يعتبر الإنسان مفصولا عنها، وهل هناك فرق بينه وبين باقي الكائنات التي تعيش معه في هذه الطبيعة؟

هذه جملة من الأسئلة التي تطرح، والتي ربما جاءت الأخلاق المعاصرة للبيئة لتجيب عنها.

3-3- نتائج تحول الفعل الإنساني:

في ظلّ كلّ هذه التطوّرات التقنية سواء المتعلقة بالطبيعة أو بالإنسان وما خلفه تقدمه التقني في هذه المجالات. لاحظ هانس يوناس Hans Jonas، أنّ الاهتمام بالماضي كمرحلة تهيئة لما هو حاضر ظهر فقط مع التقدم التقني كواقع و كفكرة تهييئية لما هو حاضر الذي يعتبر بدوره تهييئا للمستقبل.

إن مفهوم الواجب في هذه الوضعيّة، يتأسس انطلاقا من أفعال الحاضر المتوجهة إلى المستقبل الذي يجب مراعاة ما ستحدثه فيه أفعال الناس في الحاضر.

فما يجب التنبيه له في هذا الصدد حسب هانس يوناس Hans Jonas، هو ما آل إليه الإنسان في العصر الحديث، فالتطور التقني الذي كان من صنع الإنسان، لم يكتف بأن صيّر العلم في خدمة التقنية، ولكنه ذهب أبعد من ذلك، عندما صير الإنسان نفسه موضوعا لهذه التقنية مع ما يحمله ذلك من مخاطر، ومنها على وجه الخصوص، إمكانية سيطرة التقنية على الإنسان(Jonas, 1998 : 51).

في هذا الصدد يتساءل هانس يوناس Hans Jonas: من كان في الماضي يطرح مسألة الموت أو الحياة، أو بالضبط تحديد وقت الحياة كاختيار شخصي؟

لقد كان الناس على سبيل المثال يحلمون بالطيران، لكن مسألة العيش أكثر من ستين سنة لم تكن تراودهم. واليوم يقول هانس يوناس Hans Jonas أصبح هذا الموضوع ممكنا بفضل التطورات في علم البيولوجيا، والتي صارت قادرة على التدخل لمنع شيخوخة الخلايا، وبالتالي إمكانية إطالة عمر الإنسان،

وهكذا لم يعد الموت يتصور كحتميّة من حتميّات الطبيعة البشريّة، بل صار ينظر إليه كعيب يمكن تجنبه والتغلب عليه(Jonas,1998:52).

وهذه الوضعية تطرح عدة تساؤلات أهمها:

إلى أيّ حد يمكن تمديد الحياة، أو إلى أي حد يمكن أن نحلم بالقضاء النهائي على الموت، وإلى أيّ حد يمكن أن يكون هذا أمراً مرغوباً فيه، بالنسبة إلى لأفراد، وبالنسبة إلى لنوع البشري، ثم ألا يهدّد هذا التوازن الطبيعي الذي تخلفه ثنائية الموت والحياة؟

ثم إذا كان هذا ممكنا، من سيستفيد من هذا الامتياز، هل أناس خاصّون، هل أولئك الذين يقدرون على الدفع، أم الناس أجمعين؟(Jonas,1998 :52).

و يعتقد هانس يوناس Hans Jonas أنّ هذه الوضعيّة تطرح عدة مشاكل تتعلق بتعطيل دورة الحياة التي تقوم على تناوب الأجيال، ذلك أننا إذا ما وصلنا إلى هذه الحالة، سنجد نفسنا أمام جيل واحد من الناس لن يسمح لأجيال أخرى بالتواجد، أو على الأقل سيكون الشيوخ أكثر من الشباب والأطفال. وسنقضي بذلك على عفوية وتجديد الحياة وعلى طابعها الخلاق المتجدد مع الأجيال اللاّحقة(Jonas,1998 :53)،وهكذا فإن الحلم الذي طالما راود الإنسان، في القضاء على الموت قد ينقلب ضده.

<u>هل يمكن التحكّم في السلوك الإنساني؟</u>

هنا يطرح هانس يوناس Hans Jonasأيضا إحدى أهم القضايا التي نتجت عن التقدم في مجال الطب، وهي ما توصلت إليه الصناعة الدوائية والصناعة الالكترونية، والتي أصبح بإمكانها تغيير سلوك الإنسان سواء عن طريق منحه أدوية خاصة، أو عن طريق التدخل الالكتروني، في مناطق معينة من الدماغ الإنساني لتكييف سلوكه، وبالتالي التحكم فيه.

وهنا بالضبط يجد التطور التقني امتدادا له في مجال آخر، وهو المجال الاجتماعي والنفسي حيث سيصبح بالإمكان خلق مجتمعات وسلوكات على المقاس، وهنا يتدخل دور السياسة في التحكم في السلوكات البشرية، وهذه من الأمور المهمّة و الأساسيّة (Jonas,1998 :54-56) التي انتبه إليها هانس يوناس Hans Jonasفي مجال الأخلاق الجديدة، فيما يتعلق بالمسؤولية السياسية عن أعمالنا وقراراتنا، وانتهى إلى أن القرارات التي نتخذها والتي تأخذ في حسبانها المستقبل، هي البعد التمثيليّ بالمعنى السياسي، ويجب أن نتحمل مسؤوليتها، لأنها تتعلّق بأجيال قادمة، ستكون أجيال الحاضر قد فنت ولن يكون بإمكان الأجيال الآتية التي ستتأثر في المستقبل بفعلها الحاضر أن تحاسبها، وهنا يتساءل هانس يوناس Hans Jonas ما هي القوة المخول لها أن تمثّل المستقبل؟

إنه سؤال فلسفي لا يبدو الجواب عنه سهلا، فالتقدم الذي أحرزته العلوم الطبيعيّة غير العديد من المعتقدات، والعديد من المرتكزات، ومنها على الخصوص مفهوم "المعيار" مما خلق خواء وفراغا قيميا أصبح معه من الضروري، البحث عن أخلاق يمكنها أن تقف في مواجهة القدرات التي نتوفر عليها اليوم، ويقصد هنا القدرات العلميّة والتقنيّة، وهذا يطرح مسألة ما إذا كان المقدّس، أو بتعبير آخر الأخلاق الدينيّة، قادرة

على هذه المهمّة، ويوضح يوناسJonas أن الدين غائب في المجتمعات المعاصرة، و يتساءل: هل هذا الغياب مبرر لكي لا تتحمل الأخلاق المهمة الملقاة على عاتقها؟(Jonas,1998: 61).

ويجيب معتبرا أن على الأخلاق أن توجد حتى ولو غاب الدين، ويأتي هذا الوجوب لأن الناس في حاجة الى أخلاق تضبط أفعالهم.

4- أسس الأخلاق التي يتطلبها الفعل أو السلوك الإنسانيّ الجديد:

يطرح هانس يوناس Hans Jonasهنا سؤالين أساسيين، الأوّل هو ما هي أسس الأخلاق التي يتطلبها السلوك الإنساني الجديد، والسؤال الثاني ما هي ضمانات تطبيق هذه الأخلاق؟

فالسؤال الأول يتعلق بالمبادئ الأخلاقيّة، بينما السؤال الثاني يتعلق بالتطبيق، وفي هذا المجال، أيّ مجال ضبط السلوك الإنساني، فإن ذلك يدخل في نظره في خانة النظريّة السياسية، والمسألة السياسيّة هي ذات أهمية كبيرة، لأنها تتعلق بتحقيق الخير بارتباط مع ما هو ضروري وبعيد في المستقبل، وهذا يرتبط بالسؤال الأول المتعلق بالأسس، على اعتبار أن القرارات العمليّة يجب ألاّ تكون اعتباطيّة، بل يجب أن تكون مؤسسة على معرفة وعلى مبادئ قابلة للإدراك.

إن هذه الحقيقة الجديدة، لابد أن تكون في نظر هانس يوناس Hans Jonasموضوع معرفة علميّة، أي حقيقة تتعلق بالوضعيّات المستقبلية المحتملة للإنسان وللعالم، والتي يجب أن تخضع للحكم على تلك الحقائق الأولية فلسفيا، والتي انطلاقا منها، يمكن تقييم الأفعال والسلوكات، فنحن إذا لم نعرف ما يضاد الشيء، لا يمكننا اتقاؤه، فلا يمكننا أن نعرف قيمة الحياة إلا إذا عرفنا الموت، ولا يمكننا أن نعرف الحرية إلا إذا عرفنا العبودية، وهكذا.

إن المسؤولية والشعور بها يقتضي معرفة ذلك الشيء أو المحظور الذي علينا الشعور بمسؤولية تجنبه، إنّ ما تتطلبه الاخلاق الجديدة، ما كان ليصبح ملحاحا لو لم تظهر معالم التهديدات وحجم هذه التهديدات التي على الإنسان الخوف منها وتجنبها، أو معرفة الأشياء التي يمكن أن يصبح وجودنا مهددا بدونها لنعمل على الحفاظ عليها.

4-1- الخطر أهمّ منبه للإنسان:

يرى هانس يوناس Hans Jonas أنّ أهم وأوّل التزام أو واجب تتطلبه أخلاق المستقبل، هو معرفة الآثار البعيدة لأفعالنا، فالتوجّه إلى المستقبل، وتصوّر ما يمكن أن ينجم عن سلوكاتنا، هو ما يمكن أن ينير طريقنا ونحن نؤسس لمبادئ هذه الأخلاق الجديدة المتّجهة نحو المستقبل(Jonas,1998: 68).

أما الواجب أو الالتزام الثاني، فهو تهيئة الإحساس المناسب تجاه التهديد المستقبلي، الذي تصورناه، فالمعروف أن الشعور بالخوف يكون مختلفا تجاه المخاطر التي يتمثلها الإنسان، فإذا كان الخطر موجها مباشرة إلى "الأنا" فإنّ ردّ فعلها المنبعث من غريزة حفظ الذات يكون سريعا ومباشرا، أما إذا لم يكن كذلك، فإنّ درجة الشعور بالخوف تكون مختلفة، أيّ أنها تكون أقل..(Jonas,1998:68-69).

لابد إذن في نظر يوناس Jonas أن تكون الآثار موضوع الأخلاق المستقبليّة معروفة بشكل علميّ، فتكون حقيقة لا جدال فيها، ثمّ إنّ هذه المعرفة العلميّة، تحدّد ما هو ملحّ من غير ه، فلا يمكن على سبيل المثال إقناع الناس بخطر ما، ما لم يتحقّق الناس من خطورته، فما توضّحه البيئة اليوم، وما يشهده المناخ من تحولات يقنع الناس أن سخونة الأرض وازدياد ارتفاع هذه السخونة، من شأنه أن تكون له آثار سلبية تهدّد المجال البيئي، ومن هنا لم يعد هناك شك، وأصبح الكلّ واعيا بهذه المخاطر، و لذلك عقدت المؤتمرات، وصيغت المواثيق لتفعيل الالتزامات الواجب اتّخاذها لتجنب هذه المخاطر.

أمّا الصيغة الاحتماليّة، وغير العلميّة للمعارف، فإنّها لا تفيد في الاقناع، كما أنها لا تفيد في المرور إلى التفعيل السياسي لتلك المخاوف(Jonas,1998: 72)،ومن ثمّ فإن التنبؤات بالشرور أكثر مدعاة للمسؤولية من التنبؤات بالخيرات، أو إن شئنا قلب الآية، فإن خير تجنب الشرّ يسبق خير توقع الخير، ومن جهة أخرى، فإن الأمور الأكثر خطورة، هي تلك التي يجب أن يوجّه إليها الاهتمام العلميّ لتحديد مخاطرها، ومن ثمّ ابتداع الأخلاق التي تدعو إلى تجنبها.(Jonas,1998: 79)

2-4- الأساس الأنطولوجي لأخلاق المستقبل:

اعتبر هانس يوناس Hans Jonas في كتيبه الصغير من "أجل أخلاق المستقبل"(Jonas,1997: p69)، أنّ هذه الأخلاق لا تعني أخلاقا في المستقبل، أي أنّها أخلاق مصاغة اليوم وتحمل همّ المستقبل من أجل حماية الأجيال القادمة من نتائج أفعالنا في الحاضر.

لقد أصبحت هذه الأخلاق تفرض نفسها بسبب أفعال الإنسان وأنشطته التي تتمّ في إطار عولمة التقنية، وبسبب التهديد الذي صارت تمثّله هذه الأفعال، حيث أن المسؤولية الأخلاقيّة تفرض الأخذ بعين الاعتبار جانب الخير le bien لأولئك الذين سيتضررون في المستقبل دون أن نأخذ رأيهم.

إنّ هذه المسؤولية يجب أن تكون بنفس حجم القوة التي يمثّلها تدخل الإنسان في الطبيعة. فليس هناك مرحلة تاريخيّة توفّر فيها الإنسان على نفس القدر من القوّة التي يتوفر عليها اليوم، وليس هناك فترة يجب أن يتحمّل فيها الإنسان نفس المسؤولية، وهذه الأخيرة، لا يمكن أن تمارس إلا إذا كانت مرتبطة بالمعرفة، وهذه المعرفة، هي معرفة مزدوجة، فهي موضوعيّا معرفة بالأسباب الفزيائية، وهي ذاتيّا معرفة بالغايات الإنسانية، إن أخلاقيات المستقبل كما هو ظاهر من متطلباتها، والتي تمثّل موضوعا للمستقبليات، هي في حاجة إلى هذا البعد المستقبلي حسب منهج العلم، ولكي يكون تصرفنا خاضعا للأخلاق وللمسؤوليّة، يجب أن يكون خاضعا لمنطق تسلسلي تربط فيه العلّة بالنتيجة، وهكذا سيمكننا أن نهتم بالمستقبل ليس بشكل أعمى، ولكن بعيون بصيرة مفتوحة ومنفتحة.

إنّ مستقبليّة الصورة هي ما نُعَرفها باسم المثاليّة، أما مستقبليّة التحذير، فإنّه يجب علينا البدء في تعلّمها، لكي نستطيع التحكم في قوّتنا وقدراتنا، ومع ذلك فإنّ الأمر وإذا لم يُأخذ بعين الاعتبار البعد المستقبلي الآنف الذكر، فإنّ الإنذار لا يمكن أن يشمل أولئك الذين لا يخضعون لمنطق العلّة والنتيجة،

ونعني هنا من هم علّة الفعل الذي سيكون مضراً بالأجيال المستقبليّة، أو على الأقلّ الذين لا يعرفون أنّهم كذلك، أي علّة الفعل المستقبلي.

لذلك يرى هانس يوناس Hans Jonas أنّه من الضروريّ أن يتمّ التعبير عن الواجب كي نحترمه ونخضع لأمره، لكنّه قد يكون موجوداً دون أن يتمّ التعبير عنه، ومن هنا تأتي ضرورة أن يكون مبنيّا على أسس واضحة ومستقلة، ذلك إذن هو المبتغى من اللّجوء إلى المعنى المتضمن في كلمة أنطولوجيا، ويسوق يوناسJonasعلى سبيل المثال قولين لهما أسس منطقيّة مختلفة، ويمثّلان درجات مختلفة من الحقيقة: "يجب أن نأكل" ولكي نأكل يجب علينا أن نعمل". إن ضرورة الأكل هنا لها أساس أنطولوجي في تكويننا ككائنات متغذية وقابلة للتفاعل داخليّا وخارجيّا، فنحن لا نوجد إلاّ بحكم تبادل مستمرّ بين المادة والعالم الخارجيّ، أماّ القول يجب علينا أن نعمل لكي نأكل، فله أسس خارجيّة متغيّرة في وضعيات العالم الخارجيّ نفسه الذي يتوفر فيه غذاؤنا، فالضرورة الأنطولوجية للأكل إذن هي ضرورة مطلقة وليس فيها استثناء، والضرورة العرضيّة للعمل تقبل استثناءات أخرى، منها التميز، والغنى، وبشكل عامّ، ما يمكن أن نحصل عليه دون عمل.

للأشياء حالات مؤسسة أنطولوجيا، وبالتالي هناك تبريرات أنطولوجية لإيضاح حالات أشياء من نفس القبيل، لكن هل ينطبق هذا على مفهوم الواجب، أي هل الواجب حالة من حالات الأشياء، يعني هل طبيعة واجب ما أو أمر من الأوامر يمكن أن تفهم فقط على أنها حالة، وهل من المعقول أن نتحدث عن قيمة في ذاتها لمفهوم الواجب وقوته الإكراهية الملزمة، وبعبارة أخرى: هل هناك تبرير أنطولوجي لمفهوم المسؤولية؟

إن الجواب على هذه الأسئلة -التي تبقى في الأخير متعلّقة بالتساؤل حول وجود ممرّ يؤدّي إلى الوجود والواجب -ومن ثمّ إمكانيّة وجود موضوعيّ للأخلاق، هذا الجواب سيبقى دون شكّ موضوعا لا يمكن الحسم فيه، لكن على الأقل يبقى السؤال مقبولا، بل مفروضا إذا ما نحن أردنا أن يستمرّ السؤال ولا يُقبر قبل أوانه، وهنا يعلن هانس يوناس Hans Jonasقناعته الميتافيزيقيّة: فالوجود كما يشهد على ذلك بنفسه لا يُظهر فقط من هو، ولكن أيضا ما يجب علينا نحوه.

الأخلاق إذن حسب يوناسJonas لها أساس أنطولوجي، وهذا الأساس يمثل عددا من المراتب، فهو (أي الأساس) يوجد بالنسبة إ لينا أولا في الوجود، ولكن أيضا في أساس الوجود ذاته(Jonas,1997: 76)، وإذا ما بدأنا بالإنسان، فإنّه الكائن الوحيد الذي يمكن أن يكون مسؤولا، فكونه قادرا على المسؤولية يعني أنّه يقع تحت أمرها، والقدرة نفسها تقتضي الواجب، إلا أن القدرة على المسؤولية، أي القدرة ذات الطابع أو البعد الأخلاقيّ تقوم على الملكة الأنطولوجيّة، التي يملكها الإنسان في الاختيار بين مختلف الأفعال والتصرفات الممكنة، وهكذا فإنّ المسؤولية هي إذن مكملة للحرية، إنّها وزر الحريّة الخاصّ بالفرد الفاعل(Jonas,1997: 76).

5- مبدأ المسؤولية:

تتأسس المسؤولية حسب يوناس Jonas انطلاقا من أنّه لا حقّ لنا في تحقيق مصالحنا عن طريق الإضرار بمصالح الآخرين والمخاطرة بها، وأنّ الشعور بالذنب، ونحن نضر بمصالح الآخرين، كفيل بأن يوجب علينا تحمل مسؤولية سلوكنا، بل إنّ ذلك الشعور بالذنب الداخلي هو في الواقع ما يمكن أن يؤسس تلك المسؤولية، وهذه المخاطر لا يجب أبدا أن تطال مصالح الآخرين وحياتهم.

إنّ الإنسان مسؤول عن فعله أو عن إهمال ذلك الفعل، وليس مهمّا أن يطلب منه أو لا يطلب منه الحساب فيما بعد.

والمسؤوليّة موجودة بوجود أو عدم وجود محكمة أرضية تشرع عقوبات الفعل أو الترك، ومع ذلك، فإنّه إذا تعلق الأمر بالمسؤولية تجاه شيء ما، فإنه مسؤولية تجاه شيء أو تجاه مؤسسة معيّنة يفترض على الإنسان أن يكون مسؤولا أمامها، ويكون مجبرا على إعطاء الحساب، وهذه الهيئة أو المؤسسة هي ما نسميه الضمير.la conscience

وهنا يعود بنا يوناسJonasإلى المسألة التالية: وهي أن نعرف من أين يستمد هذا الضمير معاييره، ومن أي منبع يأخذ أحكامه؟ ويمكن أن نطرح السؤال بصيغة أخرى: أمام من نحن مسؤولون؟

لنبحث إذن في هذه المسؤولية، وفيما هو الشيء الذي نحن أمامه مسؤولون.

إن ما أنا مسؤول عنه، هو بالضرورة نتائج أفعالي على اعتبار أنني أضرّ بكائن آخر،(Jonas,1997: 78) وهكذا فموضوع مسؤوليّتي سيكون ذلك الشخص الذي سيتضرّر من فعلي، إلا أنّ هذا الأمر لا يأخذ معنى أخلاقيّا إلاّ إذا كان ذلك الكائن المتضرر يملك قيمة ما، أما كنت أمام كائن ذي قيمة لامبالية، فإنني لست في حاجة لإعطاء الحساب، وعلى العكس من ذلك فإنّني إذا كنت أمام كائن ذي قيمة قوية، فإن ذلك الكائن سيطالبني بالحساب، وذلك لا يجعلني فقط مسؤولا، بل يجعلني مسؤولا أمام شيء ما، أو كائن ما، لأن قيمته تملك حقّا ما اتجاهي وعلي الوفاء به.

إن هذه القصدية التي تتّجه نحوي كذات فاعلة، تجعلني ملزما أخلاقيّا، إلّا أنّ هذه القيمة لها نزوع واقعيّ، إنها تقول أنّه من الأفضل لها أن تكون على أن لا تكون، و هذا النزوع يصبح ملموسا عندما يتوجّه نحوي باعتباري ذاتا تجريبية(Jonas,1997: 80)، وهنا ستكون المسؤولية إذن متعالقة مع الوجود ليس فقط بالمعنى المنفعل مثل الشيء المتغيّر نتيجة لفعلي، ولكن بمعنى الفاعل، أي كموضوع للنداء المستمرّ للواجب، ووجود هذا الشيء، أو ذاك هو إذن ذلك الأمر الذي من أجله يلتزم العقل الخاصّ بالمسؤولية.

والوجود كله يشكل تلك الهيأة التي يتحمّل الإنسان المسؤولية أمامها، إلاّ أنّ الفعل الإنساني نفسه يفترض الحرية، أي الحرية الإنسانية وقوّة قيمة الوجود.

هذان هما القطبان الأنطولوجيان اللّذان تقع المسؤوليّة بينهما كوسيط أخلاقيّ يكمل الواحد منهما الآخر(Jonas,1997: 81)،وفيما يتعلّق بهذه المسؤولية وامتدادها، فإنّها تمثّل قوّتنا، فالحجم الكبير لهذه القوّة يحدّد إلى أيّ مدى يمكننا أن نؤثّر في الواقع، وهكذا، وبهذه الطريقة تتقوى المسؤولية وتكبر، إلّا أنّ

امتداد هذه القوّة هو أيضا امتداد لنتائجها وآثارها في المستقبل، ويترتب على ذلك أنّه لا يمكننا أن نمارس تلك المسؤوليّة المتنامية برضانا أو بغير رضانا إلّا بشرط تقوية توقعاتنا لنتائج أفعالنا، و هكذا فإنّ معرفة مستقبل بهذا الشكل يبدو مستحيلا لأسباب متعدّدة خاصّة بالإنسان وبالحياة.

وبالتأكيد، فإنّ تنمية القوة والزيادة فيها، يضمّ في ذاته تقوية المعرفة، ذلك أنّ هذه التقوية هي في جزء منها ثمرة أو نتيجة تطبيق هذه المعرفة، فمعها تتحسّن أيضا المناهج وقوة المعرفة قبل العلميّة، ولكن ليس بنفس الوتيرة التي يتحسّن بها محور الحركة ذاته، إنّ القوّة التي يمتلكها الإنسان اليوم، ومقارنة مع الماضي، أصبحت لنتائجها أبعاد كثيرة بحيث أنّ مجرّد ممارستها اليوميّة صارت تمثّل مشكلا أخلاقيّا، لذلك لابدّ لنا من البحث في الوضع الحاليّ، وتنوّع الواجبات ضمن أخلاقيّات المستقبل التي تناسبه.

إنّ القوّة المتنامية التي سبق الحديث عنها تهمّ بطبيعة الحال التقنيات الحديثة، وهي من الناحية الكميّة والكيفيّة تتجاوز أيّ مقارنة مع كلّ ما فعله الإنسان مع الطبيعة ومع نفسه إلى حدّ اليوم.

5-1- الأساس الذاتيّ والموضوعيّ لمبدأ المسؤولية:

إنّ نظريّة المسؤوليّة مثلها مثل أيّ نظريّة أخلاقيّة لا بدّ لها أن تراعي شيئيْن أساسييْن:

أولهما الأساس العقلانيّ، أي المبدأ الذي يعطي الشرعيّة للفعل الواجب ويكون استجابة له، والشيء الثاني هو أساس سيكولوجي، وهذا يعني بعبارة أوضح أنّ للمسؤولية أساسيْن الأول موضوعيّ والثاني ذاتي، والمبدآن هما وجهان ضروريّان لمبدأ المسؤوليّة، يكمل الواحد منهما الآخر، كما أنّ هذا التقسيم يجعل من الطابع الموضوعي للمسؤولية مبدأ مؤسسا ومن الطابع الذاتيّ طابعا مكمّلا، فبدون ذلك الاستعداد الأخلاقيّ الذي يمكنه أن يتقبّل الأمر، لا يمكن لأيّ فعل أخلاقيّ أن يتأسس، فالناس حسب يوناس Jonas يملكون ذلك الاستعداد القبلي الذي يجعل منهم كائنات أخلاقيّة على اعتبار أنهم يمكن أن يتأثّروا بذلك النداء، ثم يأتي بعد ذلك الجانب الذاتيّ (Jonas,1997:169-171).

ومما نلاحظ في المسؤولية أنّ موضوعها، أي الشيء الذي تتوجّه إليه هو شيء فاني يوجد أمامنا، وهو الذي يستدعينا أو يفرض علينا هذه المسؤولية التي تحدّد فعلنا، وهكذا فإن قوة الإلزام تأتي دائما من متطلّبات كائن أو شيء ما، سواء كان هذا الشيء زمانيّا أو لا زماني.

وفي الحالتين، فإنّه لابد لشيء ما أن يتحقّق في عالم الأشياء.

وهنا لا يبدو هانس يوناس Hans Jonasحاسما في رأيه، هل مبدأ المسؤولية استجابة لكائن زماني فاني كما أسلف، أم لكائن أو لشيء مهما كان زمانيا أو غير زماني؟

في هذه الفكرة، يستنجد يوناسJonas بكانطKant الذي ينفي أن يكون الانفعال تجاه موضوع أو شيء ما، هو ما يحرّكنا للفعل الأخلاقي، حيث يؤكد على هذه الاستقلالية، وعلى موضوعية القانون الأخلاقي، الذي يتخذ العقل أساسا له،(Jonas,1997: 175).

وهذا الأساس العقلي الذي يقوم على الاستقلالية اللامشروطة للعقل في المجال الأخلاقي. ويرى "كانط" في هذا الصدد أن العقل يصبح في نفس الآن مرجعا ومنتهى للفعل الأخلاقي، أي مبدأ تتجسد فيه الذاتية

الانفعالية المرتبطة بموضوع الفعل الأخلاقي أو بالشيء موضوع الفعل، وبين الكونية العقلانية التي ينطلق منها.(Jonas,1997: 176)

يختار هنا يوناس Jonasرأيا مخالفا لرأي كانطKant ، معتبرا أنّ الأشياء والكائنات الواقعية، هي موضوع تحقق الإرادة عن طريق الفعل الأخلاقيّ، وهي التي تشكّل غاية بالنسبة إلى هذه الإرادة، لذلك لابدّ من وجود هذا الكائن حتّى توجد وتتحقّق المسؤوليّة التي تؤطّر فعلنا نحوه،(Jonas,1997: 178) فالشرط الأساس في المسؤوليّة، هو القوّة السببيّة، ذلك أن الفاعل مجبر على الإجابة على فعله الذي يعتبر مسؤولا عنه وعن نتائجه، وهذه المسؤوليّة هي أولا مسؤوليّة قانونيّة، وليست فقط مسؤولية ذات طابع أخلاقيّ، وخاصّيتها هنا أن الضرر يتطلب التعويض والإصلاح حتى ولو لم يكن السبب يراد منه الشر، وحتى ولو لم تكن النتيجة متوقّعة أو كانت مسبوقة بنيّة في هذا الاتّجاه، يكفي إذن أن يكون الإنسان العلّة الفاعلة، فقد يكون السبب إهمالا، ورغم ذلك فإنّه يجعل من صاحبه مذنبا من الناحية الأخلاقيّة، وهنا مبدأ العلاقة السببيّة يبقى دائما قائما في تحديد المسؤولية، إنها المسؤوليّة التي تتحدّد انطلاقا بين مبدأ الخير، أو تصور مبدأ الخير المتجسّد في الفعل المستقبلي وليست مسؤوليّة صورانيّة أو شكليّة، هذه المسؤوليّة التي نحن في حاجة إليها اليوم، وهي تتعارض أو تتقابل مع الأخلاقيّات القديمة، إنّها أخلاق تضع نصب عينها الفعل المتحقّق مستقبلا كأساس تجريبي لمعالجة المفهوم الجوهري للمسؤوليّة المرتبط بغايات تجعلنا نضع حدا فارقا بين مفهوم المسؤولية ومفهوم اللامسؤولية، هنا يربط يوناس Jonas اللامسوؤلية بوجود المسؤوليّة، فلا يمكننا أن نكون لامسؤولين إلا إذا فرطنا في مسؤوليّة ما، إن ممارسة سلطة ما دون الأخذ بعين الاعتبار الواجب، أو ما تحتمه تلك السلطة، هو يدخل في باب اللامسؤوليّة، وهذه المسؤوليّة يجب أن تكون لها عواقب إمّا بالمكافأة أو المعاقبة، فربان السفينة هو مسؤول عن سلامتها وسلامة من فيها، ولا يمكنه في هذه الحالة القيام بأيّ عمل يجازف بحياة الركاب، حتى ولو كان الأمر صادرا من صاحب شركة الملاحة التي يعمل معها الربان رغم ما يترتّب عن ذلك من عصيان لصاحب الشركة التي يعمل هو فيها.

2-5- المسؤولية علاقة غير تبادلية:

يعتبر يوناس Jonasأنّ من خصائص المسؤوليّة أنّها غير تبادليّة، بمعنى أنّ مسؤوليّة الإنسان تجاه إنسان آخر ليست بالضرورة ملزمة ولا نابعة من مسؤوليّة الآخر أيضا نحونا، وحتّى مسؤوليّة الآباء تجاه الأبناء، هي مسؤوليّة عموديّة، إلاّ أنها تختلف عن المسؤوليّة تجاه باقي أفراد العائلة التي تعتبر علاقة عموديّة، وهذه أقلّ متانة من المسؤوليّة الأولى، أي مسؤولية الآباء تجاه الأبناء، وهنا يمر يوناسJonas إلى طرح نوعيْن آخريْن من المسؤوليّة، وهما المسؤوليّة الطبيعيّة والمسؤوليّة التعاقديّة(Jonas,1997: 186).

فمسؤوليّة الآباء نحو الأبناء أساسها في الطبيعة، وبالتالي فهي لا تحتاج إلى أيّ نوع من أنواع التراضي أو التّوافق المسبق، فهي تختلف عن المسؤوليّة المبتكرة، والمترتّبة عن تفويض مهمّة من المهمّات لشخص أو لجماعة، وهذه المسؤوليّة هي مسؤوليّة مشروطة ومحدّدة في الزمان، وفيها نوع من الاختيار، وبالتالي هي قابلة للفسخ، وهذه المسؤوليّة هي المسؤوليّة السياسيّة، فقد لاحظ هانس يوناسHans Jonasأنّ الأصل في

المسؤوليّة هي مسؤوليّة الإنسان تجاه الإنسان والتي تعتبر المسؤوليّة الأبويّة أحسن تجسيد لها، وتفرض الأولويّة التي للعلاقة الأبويّة، مسؤوليّة تندرج في طبيعة الأشياء والأمور، ومن هنا تفترض تبادلا أو تبادلية ممكنة، أيّ أنني أنا الموجود، أتحمّل مسؤوليّة ما تجاه شخص أو فرد ما آخر يعيش بين الأحياء كما أنّني أنا بدوري موضوع لمسؤوليّة فرد ما آخر، ومن هنا فإنّ علاقة المسؤولية، تصبح واضحة، وهي مسؤوليّة يحتاجها كل كائن،إلا أنّ العلاقة المميّزة للإنسان تجعل منه الوحيد الذي يكون مسؤولا تجاه الآخرين(Jonas,1997:193).

5-3- وجود الانسان أوّل الأوامر:

إنّ موضوع أولويّة الإنسان بين سائر الكائنات ليس نابعا فقط مما قام ويقوم على وجه الأرض، أو نابعا من تقييم هذه الأفعال، بل إنّه مسؤوليّة نابعة أوّلا وقبل كل شيء من وجوده، فوجوده، هو ما يعطيه هذه الأسبقيّة في المسؤوليّة، وأيضا الحفاظ على إمكانيّة هذه الحياة، هذا هو الأهمّ، أمّا الأوامر فإنّها تأتي لاحقا، ذلك أنّ وجودنا يصبح بالنسبة إلى أولئك الذين لم يستشيرونا في هذا الوجود، أي آباءنا، أوّل الأوامر، وهو الأمر والواجب الذي يصبح لدينا تجاه من نحن مسؤولون عن وجودهم دون أن نستشيرهم (Jonas,1997:196).

ويرى يوناسJonas أنّ كلا من المسؤوليّة الأبويّة والمسؤوليّة السياسية تلتقيان في عدد من نقط التشابه لأنّهما لا تختصان بمسؤوليّة واحدة، لكنّها مسؤوليّة كلّية تبدأ من الوجود وتشمل باقي الحاجيّات، فالمسؤوليّة الأبويّة تنطلق بالطبيعة من الحفاظ على الابن، ثم توفير حاجيّاته وتربيته ورعايته وتأهيله إلى أن يصبح قادرا بنفسه، ونفس الأمر بالنسبة إلى رجل السياسة مهما كانت الطريقة التي وصل بها إلى زمام الحكم الذي يمكّنه من إدارة شؤون الناس، فإنّ مهمته مسؤوليّة كليّة على اعتبار أنه يدبّر الشؤون العامّة الجماعيّة، وكذا الممتلكات العموميّة، إلّا أنّ الفرق بين المسؤوليّة الأبويّة والمسؤوليّة السياسيّة، يتحدّد في أنّ الأولى طبيعيّة على اعتبار أنّ الأب هو علة وجود الابن، أو سبب وجوده، وبالتالي فإنّ المسؤوليّة تكون مباشرة مع ما يستتبعها، أمّا في الحالة الثانية، أي حالة المسؤوليّة السياسيّة، فإنّ الحاكم ليس مسؤولا عن وجود المجموعة، بل إنّ مسؤوليّته هي تنظيم وجودها، وتصريف أمورها لضمان هذا الوجود على الوجه الأحسن(Jonas,1997:204-205).

5-4- الطفل الموضوع الأوّل للمسؤولية:

يعني مفهوم المسؤوليّة، الواجب وأوّل واجب هو واجب وجود شيء ما، وثاني واجب هو ما يجب علينا فعله كجواب على نداء واجب الوجود هذا، ويعتبر يوناسJonas أنّ الطفل الصغير المولود، يجسد هذا النداء، وهو النداء البديهي الذي تصعب أو تستحيل مقاومته، فحتى لو لم تكن الاستجابة له نابعة من الأحاسيس، فإنها تفرض من الدوافع الغريزيّة التي لا نستطيع تفسير بداهتها.

إنّ نداء الطفل المولود لتوّه، هي التجسيد الأمثل لواجب الوجود الذي يحتّم واجب الفعل الذي يجعل من الراشدين مسؤولين عن استمرار الحياة من خلال رعاية هذا الكائن الجديد الذي تجسّد كل زفرة من

أنفاسه نداء واجب الحياة الذي لا يمكن مقاومته(Jonas,1997:257)،فمع كل طفل يخلق في الدنيا، تجدّد الإنسانيّة وجودها واستمرارها في مقاومة الموت، وهذا التجدّد هو ما يطرح مسألة ترك الخلف كمسؤوليّة للحفاظ على الحياة، و من ثم تنبع مسؤوليّة الحفاظ على هذا الكائن ورعايته باعتباره تجسيدا لاستمرار هذه الحياة، وهكذا فإنّ الواجب الذي يتجسد في رعاية المولود الجديد يمتلك بداهة تعتبر من الأولويّات غير القابلة للرفض، وغير القابلة للتفسير، ويعتبر هانس يوناسHans Jonas هذه الوضعيّة المثال الأنصع للأصل الذي تتأسّس عليه المسؤوليّة التي تمتدّ إلى باقي المجالات.

6- خاتمة:

يبدو أنّ مستقبل الإنسانيّة هو الواجب الأوّل للسلوك الإنسانيّ الجماعيّ في زمن الحضارة التقنية التي أصبحت قوّتها عنيفة أكثر من أي وقت مضى، ومن ثمّ فإنّ هذا المستقبل أصبح هو موضوع المسؤوليّة التي هي في نظر يوناسJonas مسؤوليّة ميتافيزيقيّة في ذاتها ومن أجل ذاتها منذ أن أصبح الإنسان خطيرا ليس على نفسه فحسب، بل وأيضا على الطبيعة والبيئة كلها.

ومن خلال القراءة يتبين أن فلسفة هانس يوناس Hans Jonas تسير في الاتّجاه المتأثّر بفلسفة الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر(1976Martin Heidegger) الذي كان سبّاقا إلى التنبيه لمساوئ التقدّم ومساوئ التقنية.

لقد كان يوناس Jonas يسمّي هايدغرHeidegger"المعلم الكبير"، وكان قد وصف كتابه "الوجود والزمان" أنّه الزلزال الحميد الذي رَج الفلسفة وهدم النموذج المعرفي الأحادي، ووضع مكانه "الأنا" الذي يجاهد من أجل الوجود، هذا الأنا الملحاح والفاني في نفس الآن.

إلاّ أنّه مع ذلك وجد نفسه أمام تناقض محيّر: فهايدغر Heidegger الذي كان النموذج، انحاز إلى النازية المعادية للشعوب خاصّة اليهود، "ويوناس"Jonas كان كما نعلم يهوديّا، و كان هذا الانحياز إعلانا لإفلاس فيلسوف مثل هايدغر Heideggerوأيضا إفلاسا للفلسفة نفسها على حد تعبير(Jonas,1997:12).

ويلاحظ القارئ أن "يوناس" ومشروعه الفلسفي يتحدّد أو يريد أن يجعل نفسه بديلا لنقائص هايدغرHeideggerوفلسفته الوجوديّة، فالكائن والوجود لا يمكن أن يتحدّدا في استقلال عن الأخلاق، ولا الأخلاق يمكن أن تتحدد أيضا في استقلال عن الوجود(Jonas,1997:13).

فمن خلال الأخلاق يمكن إدخال النزعة الطبيعيّة في بعدها الميتافيزيقي الذي يمنح للكائن الإنساني كرامته على اعتبار أنّه قادر على تحمّل المسؤوليّة، ولا يخفي يوناسJonas تخوّفه من أن كلّ من الكرامة والمسؤوليّة توجد اليوم على المحكّ بحكم الأخطار الكبيرة التي تتهدّدها (Jonas,1997:14)وهكذا، فإذا كان كلّ من هابرماس(Habermas) وكارل أوطو أبل(Karl Otto Apel ت2017) قد سعيا إلى بناء عقل عمليّ مستقل عن الميتافزيقا، فإن أخلاق يوناسJonas على العكس من ذلك هي ميتافزيقا، بل أنطولوجيا.

فتأسيس هذه الأخلاق يمتدّ إلى الكائن نفسه الذي جعله أحد مواضيع الميتافزيقا بامتياز.

وأخلاق يوناسJonas تستكشف إن شئنا أوجه المسؤوليّة المتوجّهة نحو المستقبل البعيد الذي نحن مسؤولون عنه، وأيضا مبدأ الواقع الذي يتحكم أيضا في مذهب يوناسJonas الذي سعى إلى الابتعاد عن مختلف "اليوتوبيّات"،كما حاول إقامة جسور بين الأخلاق والكائن، وهو يناقش مثاليّات التقدم واليوتوبيا، بالإضافة إلى محاولة بناء أخلاق جديدة مادامت الأخلاق القديمة في نظره قد استنفذت مهامّها وأصبحت عاجزة عن الجواب عن أسئلة الحاضر.

ويرى هانس يوناس Hans Jonas أن الدافع الإنسانيّ لطلب هذه الأخلاق الجديدة، هو التغيير الذي عرفه الفعل الإنسانيّ L'agir humain الذي لم يعد موجّها إلى الطبيعة، بل تحوّل في اتجاه الإنسان نفسه بحكم التطبيقات المتعدّدة التي أصبحت تتّجه إليها التقنيات على الإنسان، وأيضا بحكم انفلاتها من يد الإنسان الذي كان هو صانعها، وأصبح بإمكان هذه التقنية أن تتحكم فيه(Jonas,1997:32).

وهكذا، فإنه إذا كان الإنسان في الماضي خارج تأثير التقنية، فإنّه اليوم أصبح هو نفسه أحد مواضيعها، وأصبح بإمكانها التدخّل فيه وتحويله، فإمكانيّة تمديد الحياة، والتحويلات الجينيّة، وما يمكن أن تحدثه على الإنسان تؤشر على هذا التحول العميق في الفعل الإنسانيّ، و هذه التطبيقات أصبحت تطرح عدة أسئلة ذات بعد أخلاقي لم تكن مطروحة من قبل.

هذه هي الإكراهات والشروط التي يدعونا فيها يوناس Jonas إلى بلورة أخلاق جديدة تستجيب للمشاكل والتساؤلات المعاصرة، فالعالم اليوم حافل بالإمكانيّات المقلقة، وهذا التحول النوعيّ للفعل الإنسانيّ يضعنا في صلب الحاجة الملحاحة والاستعجاليّة لتأسيس أخلاق جديدة، كما أنّ الوضعيّة الإنسانيّة لم تعد وضعية جامدة، بل صارت وضعية متحولة باستمرار، سواء تعلّق الأمر في علاقة الفعل الإنسانيّ بالطبيعة، أو بآثار التقنية التي ابتكرها عليه هو نفسه.

هذه التحوّلات استدعت تأسيس أمر أخلاقيّ جديد مختلف كما سبق الذكر، عن الأمر الأخلاقيّ الكانطيّ الذي لم يعد قادرا على احتواء هذه التحوّلات، فالأمر الأخلاقيّ الكانطيّ كما نعرف يأمر دون شرط، ولا يتوجه إلى مضمون الفعل، ولكنّه يهتمّ فقط بشكله وعلاقته بمتطلب كوني يتأسّس عليه هذا الفعل الأخلاقيّ من أجل أن يصير قانونا كونيّا، (Jonas,1997:34)أما الأمر الأخلاقيّ الذي أراد هانس يوناس Hans Jonasتأسيسه لتعويض الأمر الأخلاقي الكانطيّ فإنّه يحتوي الإنسان ويتوجّه إليه وإلى والحياة معا، وهو يحمل في طيّاته إرادة تنسجم مع الوضع الإنسانيّ الضعيف والفاني. بإنّ مضمون هذا الأمر الأخلاقيّ يدعو إلى الحفاظ على الحياة وتحمّل الإنسان لمسؤوليّة فعله، ويطالبه بأن لا يكون هذا الفعل مدمرا حتى تستمرّ الحياة في الوجود، ويستمرّ الإنسان معها: "تصرف بحيث لا تكون نتائج فعلك هدّامة ومهدّدة لإمكانيّات الحياة في المستقبل"..(Jonas,1997:34)

لماذا إذن يتوجّه الأمر الأخلاقيّ إلى الواجب الإنسانيّ برمّته وفي اتّجاه مستقبل الإنسانيّة؟

هنا يعيد يوناسJonasصياغة سؤال سبق للفيلسوف لايبنزLeibniz أن طرحه، وهو لماذا هناك شيء ما بدل اللاشيء؟

ويصبح السؤال هذا المعنى، لماذا نفضل الوجود على اللاّوجود؟ ويأتي جواب يوناسJonas أن الوجود أحسن من العدم، لأنّ هناك في رأيه تفوقا مطلقا للأول على الثاني، وهكذا فإنّ الأخلاق توسع سؤال الوجود، وترسخ من خلال هذا السؤال نظريّة القيم، فما يعنيه الواجب لا يأتي فقط من الإرادة التي تأمر به، ولكنّه يأتي من الوجود ومن الخير في ذاته، وهنا تظهر النزعة الميتافريفيّة لهانس يوناسHans Jonasالتي تطرح التساؤل عن جدوى ضرورة الوجود الإنسانيّ في العالم، هذا الوجود الذي يتفوق على العدم ويحظى بأسبقية الاختيار في الجواب على السؤال: مَنِ الأفضل هل الوجود أم اللاوجود؟(Jonas,1997:36).

ولكي نفهم هذا البعد الأنطولوجي المتوجّه نحو المستقبل البعيد، يناقش يوناسJonas نموذجين للمسؤوليّة هما: المسؤوليّة الأبويّة ومسؤوليّة الدولة.

ويخلص يوناسjonas إلى أنّ هايدغرHeidegger لم يستطع هو الآخر مثل هوسرل (Husserl ت1938) الجواب على سؤال الإحساس بالجوع، ولاحظ أن وراء التصور "الهايدغري" للوجود، كان هناك مرض تعاني منه الفلسفة، وهو كراهيّتها للطبيعة أو المقاربة الطبيعيّة التي عوّضتها دائما بالروح، وأعطتها مكانا أفضل وأعلى،(Jonas,1997:40) إنّها الثنائيّة القديمة التي وسمت الفلسفة منذ أفلاطون، وامتدّت مع التصوّر المسيحي والتي اعتقدت دائما أنّ هناك روحا و مادة، وحياة داخليّة وأخرى خارجيّة، وأنّ هذه الثنائيّة لم يكن وجودها أبدا وجودا متناغما، بل كان دائما وجودا عدائيّا، وهذا التضاد كان يتوحد في الإنسان الذي كان دوما منقسما إلى مادة وروح، فقد كانت هناك المادّة المرئيّة القابلة للمسّ والتعرف عبر الحواسّ، وكانت هناك الروح التي تطلبت دوما غوصا ومعرفة من نوع خاصّ، ولم يقف هذا التضاد عند المستوى التأملي بل تجسّد على أرض الواقع من خلال التقسيم الذي كانت تعرفه الجامعات الأوروبيّة بين علوم الطبيعة وعلوم الروح(Jonas,1997:42). وكانت الفلسفة بطبيعة الحال هي ما يهتمّ بالجانب الروحي.

لم يكن يوناسJonas يخفي انبهاره بهايدغر (Heidegger) الذي سماه معلمه الكبير، إلا أن هذا الانبهار لم يبق مكتملا، فقد ارتكب هايدغر(Heidegger) في نظر يوناسJonas الزلّة الكبرى، أو السقطة الكبرى والتي يؤرخ لها بسنة 1933 وتحاشى الحديث عنها بالتفصيل، وفضل الحديث عن شيء رآه مهمّا، وهو هل يعني سلوك هايدغر (Heidegger) شيئا بالنسبة للفلسفة؟

ويجيب بدون تردد نعم، وتبرير هذا الجواب في نظره آت من كون الفلسفة على خلاف باقي المعارف ندبت نفسها للجواب على فكرة أساسيّة، وهي الاهتمام ليس بما يقدمّه الفيلسوف، ولكن أيضا الاهتمام بسلوكه،وذلك في المنظور الأخلاقيّ المتوخي للخير أكثر من مجرد أن ننتظر منه العلم أو المعرفة فقط(Jonas,1997:46).

لقد كان من أهمّ الأحداث التي عرفتها الحرب أيضا، حادث "هيروشيما" التي فتحت جحيم السباق ليس نحو التسلّح، ولكن نحو الدمار الشامل، والتي وإن كانت نتيجة من نتائج العلم والتقنية، فقد شكّلت هاجسا للفكر الفلسفيّ الذي سعى إلى تأسيس أخلاق تنبه الإنسان إلى خطورة هذا التطور وتشعره

بمسؤوليّة هذه الأفعال، لعلّه يتّخذ احتياطاته لتجنّبها، ويوجّه العلم إلى ما فيه، الصلاح والإعمار بدل الدمار المهدّد للحياة برمّتها.

هل من الممكن أن يحلّ هذا السلام في الوقت الذي كانت فيه الحرب هي القانون الأول لهذه العلاقة؟

المراجع العربيّة:

1- عبد الرحمان طه: "***سؤال الأخلاق***"، المركز الثقافي العربي، الطبعة الخامسة،2013،
2- عبد الرحمان طه: "**سؤال العمل**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى: 2012

المراجع الأجنبية:

1- Emmanuel Kant**:** ***fondements de la métaphysique des mœurs,*** Hatier
2- Hans Jonas :***Pour une éthique future***, Rivages Poche, Paris, 1997.
3- Hans Jonas :***le principe responsabilité,*** Champs Flammarion,1998. Librairie. Sans date de publication.
4- Karl Otto Appel*:* ***L'éthique à l'Age de la science***, Presses universitaire de Lille,1987.
5- Martin Heidegger: ***Chemins qui ne mènent nulle***, Gallimard, Paris, 2006.